حوار مع الروائي التونسي صلاح الدين بوجاه

■ أنا أكتب إذن أنا مغاير! ■

حين تسأل القاصّ والروائيّ التونسيّ صلاح الدين بوجاه أن يقصّ عليك رحلتَه مع الكتابة، تجده يأخذ موقعَ «الراوي عن نفسه» ليخبرك بأنّ الرغبة في الكتابة وُلدتْ عنده منذ طفولته الأولى.

أجرى الحوار:

ماجد السامرائي

فماذا فعلتَ يومذاك؟

تشبثتُ بها تميمةً تقيني عثراتِ الطريق وتُكْسب وجودي معنًى. لقد ورد في بداية **النخّاس** قولُ الراوي هناك: «كان تاج الدين فرحات قد أحسّ منذ أعوام بأنّ الدنيا غبيةٌ تدور حوله كبغل الطاحون، أو تُلاعبه الكوريدا مثلَ ثورٍ جريحٍ في ميدانٍ شاسعٍ آهلٍ بالوهم والرِّيَبِ والأحابيل. وقد قضى شطرًا من حياته يَحْلم بأن يصبح أديبًا كبيرًا. ثم أَيْقن أنّ للفن متعةً خالصةً تَنْشأ لحظةَ الخلق، هادئةً مطواعًا قد أَسْلسلت القيادَ، أو جَموحًا عنيدةً آبقة. فلبث معاشرًا للحبر والورق ورائحة الحبر، يحبّ الكتبَ ويعالج الكتابةَ ويَعْشق الخلوةَ ويُطيل السهرَ... ويُثيره الترابُّ غبَّ يومٍ مطير...»

ولكنْ، أيُّها الراوي عن نفسه، أليس في إمكاننا أن نَجلو العلاقة؟

بل في إمكاني أن أَجْزم بأنّ الكتابة عندي قد وُلدتْ من كمّ الخوف والخجل والانزواء: فكانت بالنسبة إليَّ ترياقَ وجود، بها أقول وأسمّي وأعبّر عن صمتي المثقل. فهي تجربة في الوجود أساسًا، وليست منبعثةً من همّ اجتماعيّ أو سياسيّ أو سواهما. إنّها فعلٌ حميمٌ قوامُه كَشْفُ المغطّى (الذاتيّ والعامّ)، وتعريةُ الصمت والخفاء، وتجاوزُ ما نَسْكت عنه. إنّها حياتي الأخرى العميقة التي أتخفّفُ فيها من وقار الأسرة والمجتمع والوظيفة.

في بداية السبعينيات كتبتُ القصة القصيرة، وقد ظَهرتْ لي عدّةُ أقاصيص على صفحات جرائدنا ومجلاتنا التونسية. لكنّني جنحتُ بعد ذلك إلى الرواية، إذ أَزْعم أنّها أَرْحبُ عالمًا وأوسعُ أفقًا وأقدرُ على خلق الإيهام المتشعّب الطويل القائمِ على غواية القصص والتخييل وشبقيةِ السرد.

ومن بعد ذلك، أين شَتّ بك المسار؟

عدتُ بعد خمس روايات إلى القصة القصيرة، فظهرتْ لي مجموعةٌ باسم **سهل الغرباء**. ولكنّ تشبُّثي بالرواية، مجالاً لعملي ولعبي ووجودي، يُلْبث أمرًا ثابتًا لا مراء فيه.

أودّ أن أتعقّب أعمالَكَ معك، فبماذا تخبرني عن كلٍّ منها؟

كانت **مدوّنة الاعترافات والأسرار** عملاً من أعمال البدايات. ففيها قوّةُ الانطلاق، وسعةُ الأفق، وسذاجةُ الشباب أيضًا. أتشبّثُ منها الآن بتجربة المتن والحاشية، إذ عمدتُ إلى محاولة إحياء شكلٍ عربيٍّ قديم بتقسيم الصفحات فعليًا إلى متن وحاشية، بحيث تُروى الأحداثُ روايتيْن مختلفتيْن، تتمايزان ثم تلتقيان.

حين كتبتُ **المدوّنة** كانت حاضرةً في ذهني روايةُ **المسخ** لكافكا. وكنتُ أَجْزم بأنّني، وجيلي التونسيَّ والعربيَّ، قد أَصْبحنا مجرّدَ كائناتٍ هلاميةٍ لا وجود لها. لذلك تُستَهلُّ الروايةُ بالإشارة إلى أنّ بطلها لا وجود له: فهو غائبٌ، خفيّ، في صفاءِ الزجاج الذي يُمْكن أن نُبْصر من خلاله.

أمّا **التاج والخنجر والجسد** فتُراود هلوساتِ الريف والمدينة معًا، سعيًا إلى ابتداع عملٍ تخييليٍّ هو من قبيل السيرة الجماعية لكن المتخيَّلة (رغم تناولها بعضَ عناصر الواقع). إنّها معالجةٌ للعبة الراعي والرعية عَبْرَ تاريخنا الوسيط والقريب، بأدوات من الحاضر.

وأمّا **حمام الزغبار** فتَسْتند إلى حمّامٍ فعليٍّ في مدينة القيروان العتيقة. لكنّ القصة قائمة على ارتياد مجاهل الرغبة والموت عبر جسد المتعة والجحيم.

لكنّي أَزْعم أنّ **النخّاس** هي مرتكزُ أعمالي إلى حدّ الآن، رغم أنّني نشرتُ بعدها روايةً ومجموعتيْن قصصيتيْن. فهي روايةٌ «بحريةٌ» أولاً، إذ يَلِجُ البطلُ رحلةً من «حلق الوادي» إلى مدينة «جنوة» الإيطالية. وتتوالى الأحداث في لعبة تخييلية تَزجُّ بجميع عناصر الحضارات والأجناس والثقافات، بما يُشْبه الملحمةَ في معناها الشامل. فقد قامت على المزج السرديّ واللغويّ والحدثيّ بين عناصر متباعدة شتّى. ولعلّها أيضًا تَقْترح نهجًا في السرد يمثّل إجابةً على التجارب الغربية الراهنة.

وأمّا **راضية والسيرك** (وسامح اللّه د. سهيل إدريس [ناشر الرواية] الذي اختار هذا العنوانَ بديلاً لـ **السيرك** أو **القاع** ـ لا يهمّ)، فهي رواية تَرْتاد مجاهلَ الشوارع الخلفية في مدينةٍ عربيةٍ ما، حيث المسكوتُ عنه جنسيًا واجتماعيًا وسياسيًا وحضاريًا. وهي تجربة تختلف كثيرًا من حيث السرد وأسلوب اللغة عن الروايتيْن الأولى والثانية (أي **المدوّنة**، **والتاج والخنجر والجسد**).

أخيرًا فإنّ **سهل الغرباء** مجموعة قصصية تَعْتمد البرهةَ السريعةَ والمشهدَ الآفِلَ، وتقوم على اللحظة الأخيرة حيث يختبئ الانتظار.

لو أردنا تلخيص الرؤية والموقف في هذه الأعمال، فماذا تقول؟

أقول: يتحاور في محاولاتي الروائية: التراثُ، وعناصرُ العِلْم المعاصر، والشعرُ، والتاريخُ، والأسطورةُ... الواقعيُّ والعجائبيُّ، الخاصُّ والعامُّ، التونسيُّ، والعربيُّ، والمتوسطيُّ، والإنسانيُّ، والمحليُّ... العبثُ، اللّعبُ، الجِدُّ، الوقارُ الساخرُ. إنّها سؤالٌ حول جنوني الخفيّ وراء بذلة الأستاذ، أو عضوِ البرلمان، أو الزوج والأب.

الكتابة عندي تجربة في الوجود أساساً، وليست منبعثة من همّ اجتماعيّ أو سياسيّ

وفي كلمة، أَزْعَم أنّ تجربتي في القصة والرواية في حاجة إلى التأنّي الرصين البعيد عن مجرّد الامتداح أو الاستنقاص. إنّها في حاجة إلى الناقد الذي يَعْكف على مجالات القوة فيها ومجالاتِ الضعف والنقص، بجدِّ العالم وعَبَثِ العاشق!

بوصفك روائيًا من جيلٍ روائيٍّ جديد، ما الذي تريد التأسيسَ له من خلال رواياتك في بعديْها الفنيّ والموضوعيّ؟

أحلامٌ ورؤى شتّى تَنْتابني لدى مستهلّ كلّ رواية، بل كلِّ قصةٍ قصيرةٍ أيضًا، كأنْ أقول: «إنّني اخترتُ المزجَ بين التراثيّ جدًا والحداثيّ جدًا» أو: «إنّني أجنح إلى استعارة الأساليب القديمة الرصينة قَصْدَ تطويعها لأداء العصر، بل لأداءِ أحدثِ ما في العصر» أو: «إنّ في كتاباتي السردية جنوحًا إلى مراودة العبث واللعب بالمقدّس اللّفظيّ والدينيّ والاجتماعيّ.»

إنّه توقفٌ ينتابني عند مفتتح كلّ عملٍ جديد، إذ أَنْتبه إلى أنّني لم أحقّق من أهدافي الأولى غيرَ النَّزر اليسير، وأنّ النصّ قد أَفلَت من ضوابطي ويكاد يُلقي بي على أرض الحيرة والبُطلان.

عند الفراغ من كتابة النصّ الجديد، أُقْبل على قراءته للمرّة الأولى، فأجدني إزاء نصّ غريب. وأُلحّ ههنا فأقول إنّ هذا يحدث مع الروايات خاصةً، أما القصص القصيرة فحظُّها قليلٌ من هذه المعابثة التي يسلّطُها النصُّ على الكاتب.

على الرُّغم من كلّ ما تقوله عن روايتك وقصتك القصيرة، أو ما قاله النقّاد عنهما، فإنّ هنالك «الجوهريّ» الذي يَنْبغي تعيينُه. وهنالك «السؤالُ» أيضًا... الذي قد يكون سؤالَ الذات في مواجهة الواقع والعالم الذي هي فيه ولكنّها تعيش انفصالَها عنه أحيانًا.

هل أَجْزم ههنا أنّ «سؤالي» (إنْ وُجد لي بالضرورة سؤال!) هو سؤالُ الذات في مواجهة الواقع أو العالم، في مسايرته واختلافه؟ لعلّني أكون قد اختزلتُ المسألة، من وجهة نظري الخاصة، في قصة قصيرة تَحْمل عنوانَ «المهرّج.» فالواحد منّا يَلْبث مهرِّجًا حتى آخر حياته. قد يُزجِّج حاجبيْه بهذا اللون أو ذاك، وقد يتّخذ قلنسوةً بشكل معيّن، وقد يُعابث الأطفالَ والعجائزَ فوق ركح السيرك العامّ الذي نعيش داخله. ولكنّه في النهاية لن يقول إلاّ ذاتَه: آلامَها واستيهامِها الخفيةَ، جراحَها وانتصاراتِها الموهومةَ.

إنّ مشكلتي الأولى تَنْبع من تلك المفارقة الأصلية، الكيانية، بين الذات والواقع. أما مجتمعي وإنسانيتي والرؤى العامة التي تَسْكنني، فشأنُها شأنٌ آخر؛ فهي تتسلّل من خلال اللعبة الأصلية التي هي لعبةُ الذات مع العالم. معها أو بَعْدها أو فيها؟ لا يهمّ... لكنّها ثانوية بالنسبة إليها.

نعم. تعنيني لعبةُ الحياة والموت، الرغبة والعدم، الفردوسيّ والجحيميّ، أكثرَ ممّا تعنيني المسائلُ الاجتماعيةُ رغم غناها وأهميّتها وجلال قدرها.

وسؤال الأدب عندك؟

إنّه مُقترن بالجرح الأبديّ الذي ما فَتِئنا نَلْعقه منذ الأزل مثلَ الذئاب التائهة في الصحراء، وهو: ما جدوى هذه المعابثة الكبرى التي تحفّ بنا؟ نحو أية غاية نسير؟ ما سرّ المتعة التي تَنْفلت بين أناملنا مثل سراب الطريق؟

مع كلّ نصّ جديد نَسْتشعر الألَمَ وخفوتَ الألم؛ ذلك لأنّ لَعْقَ الجراح يُثيرها ويُهديها شيئًا من السكينة... في آن!

ولكنْ يتراءى لقارئك أنّ هنالك حاضرًا دائمًا (هو الكاتب/أو أبطاله) يُنادي غائبًا (قد يكون إنسانًا، مثالاً، فكرة، حقيقة).

لعلّه من شأن النقّاد والقرّاءِ عامةً أن يقفوا على هذا. أمّا ما يُمْكن الجزمُ به الساعةَ فهو أنّ فكرة الغياب، من حيث هي سليلةُ فكرةِ الموت، هي من العناصر الثابتة في ما أَكْتب. وماذا يفعل الكاتبُ في النهاية غيرَ محاولة تشويش المُثُل والأفكار والحقائق.. قَصْد إعادة تنظيمها بكيفيته الخاصة؟!

أزعم أنّ **النخّاس** هي مرتكز أعمالي إلى حدّ الآن

لكنّني أودّ هنا أن أضيف إنّ حظّ هذا «المنادى» من الوضوح والخفاء يَخْتلف من عمل إلى آخر: فهو في **النخّاس** أكثرُ جلاءً ووضوحَ ملامحَ منه في **التاج والخنجر والجسد**، أو **حمام الزغبار**.

وهنالك أيضًا ما يتراجع، في الوقت الذي نجد فيه ما يتقدّم.

نعم. وذلك هو السجال الدائم بين الشخصيات والكاتب والقرّاء المفترضين، ومجموعة الأفكار والمثل التي يتعاملون معها ـ ومن خلالها ـ مع الواقع والناس والغيْب. وحركة المدّ والجزر هذه تتّخذ صورًا ووضعياتٍ شتّى، من عمل إلى آخر، بل من فصل إلى آخر، ومن حدثٍ إلى الذي يليه أحيانًا. خُذ رواية **راضية والسيرك** مثلاً. فلقد اتّخذتْ شكلَ اللعبة (لعبة السيرك بالتحديد)، لكنّها في جوهرها تَسْتحضر الكثيرَ من الغياب ـ من قبيل المُثل والأفكار والحقائق.

هل تجد أنّ ما يَشْغل أبطالَك وشخصياتِك الروائيةَ، أو يؤطّر عوالَمهم من الرؤى، يَحْمل شيئًا من التعبير عمّا تريده أنت أو تراه؟

لا شكّ في ذلك... لكنْ بطرق وأساليب معقّدة جدًا. فهنالك تشابيه واستعارات كثيرة تَسْعى إلى اختزال «لعبة الفنّ والواقع،» ومنها حديثُ البعض عن الصندوق الأسود في آلة التصوير حيث تبدو المَشاهدُ ـ أولَ ما تَبْدو ـ مقلوبةً رأسًا على عقب. لكنّني هنا أَكْتفي بالجزم بأنّ هذه اللعبة معقّدة جدًا: فهي من قبيل الحلم أو لعبة النرد أو مداورة الغيب. إنّها، بكلمة، لعبة قاتلة وكفى!

ماذا يفعل الكاتب في النهاية غير محاولة تشويش المُثُل والحقائق قصْدَ إعادة تنظيمها؟

ومهما كنّا قد صُغْنا من حيلٍ ومداوراتٍ فإنّنا ـ أساسًا ـ نعبِّر في شخصيات أعمالنا عن الكثير من رؤانا ورغائبنا. ولكنّ هذه الرؤى والرغائب تَردُ محرَّفةً مشوَّهةً، لأنّ تلك الشخصيات سرعان ما تأبق بعيدًا وتمدّ ألسنتَها لمعابثتنا والتهكُّم علينا. فهل نجانب الصوابَ إذا ما أكّدنا أنّنا نتوهّم أنّنا نَخْلق شخصياتنا، لكنّها في النهاية قد تكون هي خالقتَنا الفعلية؟ وهل أقول إنّ «النخّاس» هو الذي كتبني؟

هذه الشخصيات في رواياتك لا تَطْلب الحقيقةَ لذاتها، وإنّما هي في بَحْثها عن «الحقيقة في الحرية» إنّما تعبّر عن أزمة الإنسان في عصرنا.

هذا سليم جدًا في نهاية المطاف. إنّ الواحد منّا لا يعبّر عن الإنسان أو العصر (بأحرف تاجية) إلاّ من خلال تعبيره عن ذاته وأحلامه وطموحه واستيهاماته. وهو لا يعبِّر عن الإنسانيّ والأبعد والأوسع إلاّ ساعةَ يَغْرق في المحلية. فالضيِّق هو طريقُنا إلى الأرحب دائمًا. الرحم/عنق الزجاجة/منبثق الينبوع: صور الطبيعة جميعًا تَدْعو إلى إنشاء المقارنة!

دعني أَجْزم بأنّ نشدانَ الحرية أو الحقيقةِ في الحرية هو من الأمور الحضورية في مشهد الكتابة. فنحن نعيش الحرية حين نَجْلس إلى أَنْفسنا، إلى عالم أوهامنا وجراحنا، ونَكْتب. فالحرية إذن معطًى حضوريٌّ ومعطًى منشودٌ مؤجَّل في الوقت نفسه.

وأَخْتزلها هنا لأقول: إنّ الكاتب يَعْبد الحرية لأنّه يَعْبد المغايرة. إنّ كلّ ما يَفْعله حين يَكْتب لا يَخْرج عن قوله «أنا مغاير!»

هل نستطيع القول هنا إنّ ما يهمّك في روايتك هو إعادةُ بناء عالم الإنسان في عصرك؟

مثلما قلتُ منذ حين، هذا سليم جدًا، لكنْ في نهاية المطاف.

يقول بعضُ النقّاد: «القارئ يَقْبع خلف ريشةِ كلّ كاتبٍ لحظةَ يجلس إلى أوراقه.» ويرى آخرون أنّ الرؤية العميقة المتحكّمة في المجتمعات هي التي تتجلّى في أعماق الأعمال الإبداعية، متّخذةً عدّةَ أشكال يَعْسر تبويبُها وضبطُها ولكنّها تذكّر بملامح المجتمع الحافّ.

كل هذا سليم جدًا، في ما أرى. لكنّ الكاتب لا يتقصّد ذلك تقصُّدًا. قصارانا أن نُبْدع، أيْ أن نكون أنفسَنا بتناقضاتها وقوّتها وقصورها، وأن نعابثَ الناسَ والأفكارَ والمقدّسات والمسلَّمات، وأن نعابثَ أنفسَنا والمستقرَّ لدينا. وقد يتشكّل في النهاية من هذه المعابثة، أو قُلْ من طين هذه المعابثة، ذلك الكائنُ الخزفيُّ الجميلُ الذي سيكون بالضرورة حاملاً شيئًا منّا ومن عصرنا ومجتمعنا.

في **مدونة الاعترافات والأسرار** أَعْترفُ بأنّني تقصدتُ ذلك تقصُّدًا. لكنْ هل كان هذا من قبيل العبث؟

ماذا يعني ذلك عندكَ في مستوى الفكرة التي تؤسِّس عليها الواقعَ الإنسانيَّ في روايتك؟

لقد قامت **مدوّنة الاعترافات** على الرغبة في تصوير واقع جيل عربيّ غُيِّب حدَّ الفجيعة. ولذلك استعرتُ للبطل (أبي عمران سعيد) صورةَ الغياب الفعليّ. وعمدتُ إلى المزج بين الواقعيّ والخرافيّ العجائبيّ، فأكّدتُ أنّه قد غاب منذ الشطر الأول من النص، أو لعلّه قد «رُفع» أو هاجر في الملكوت. وكنتُ حينَها تحت وقع رائعة فرانز كافكا **المسخ**، حيث يتحوّل غريغوري حشرةً ضخمةً منقلبةً على ظهرها، منكفئةً على نفسها، منذ السطور الأولى من القصّة.

أن يُمْسخ الإنسانُ، أن يغيب ويوارى ترابَ القهر: ذلك هو قَدَرُنا.

إنْ كان هذا هو المقصودَ بسؤالك، فهو ممّا يفعم رواياتي وقصصي، فيَبْدو صريحًا حينًا، خفيًا حينًا، لكنّه حاضرٌ أبدًا، فاغرٌ فتحتَه الداميةَ مثلَ جرحٍ قديمٍ لا يندمل.

ولكنْ ألا تجد أنّ شخصياتك تَحْمل نظامَها معها؟

نظامها غيرُ ثابت. هي لا تَحْمله معها منذ المستهلّ، بل يوجد تدريجيًا أو يتمّ تخليقُه داخل النصّ. هل نَسْتعير لها ههنا تلك الصورةَ الوجوديةَ القديمة: «الوجود يَسْبق الماهيةَ، وليست الماهيةُ هي التي تَسْبق الوجود؟» إنّ شخصياتي تَسْتكشف جوهرَها وتَصْنع ماهيتَها بعد أن توجد، أو قلْ بصفةٍ تدريجيةٍ وهي تُوجِد نظامَها معها؛ ذلك لأنّها توجَد كي تبحَث عن نظامها!

وهل وجدتَ أنّ شخصياتك الروائية تَفْتح أمامك آفاقًا جديدة في الحياة؟

طبعًا. فشخصياتي في النهاية أصدقاء، أو رفاقٌ في مغامرة الوجود ومعابثةِ الناس والأشياء والواقع. هل أَسْتعير شطرًا من أبيات صديقي محمد الغزّي لأَهتَف: «أولئك هم الذين يَفِدُون على القلب حين نَرْجف في الليل من الوحدة؟»

لقد أثبتُّ في تصديري لمجموعة **سهل الغرباء** صرخةَ دعبل الشاعر. وإنّني لأتشبَّث بها مجدَّدًا هنا: «أَحْمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة... لستُ أجد أحدًا يَصْلبني عليها.»

نعم، إنّ شخصيات رواياتي وأقاصيصي مثلُ الأصحاب: أستعين بهم على وعثاء السفر، منهم الدربةُ وفيهم المرانُ. فمن يكون الأقدر على أن يَصْلبني على خشبتي التي تُثْقل كاهلي منذ ما يَرْبو على الأربعين سنة!؟

أخيرًا، ماذا تجد نفسَكَ قد حققتَ للكتابة الروائية؟

شيئًا يسيرًا جدًا. وليس هذا من قبيل التواضع، بل قد يكون من قبيل الغرور! لقد حققتُ نزرًا قليلاً مما أنوي تحقيقَه. فمشروعي في الكتابة الروائية أوسعُ، وأكثرُ ادّعاءً، ممّا كتبتُ إلى حدّ الآن. قد أكون الآن تمكنتُ من صوغ بعض الأسئلة، أو قل الأسئلة الأولى، لكنّني لم أحقّق ما أَصْبو إليه.

إنّني أشهد، وأقرّ، بما يلي: سأواصل تشويشَ الوجود بكيفيتي الخاصة. وإنّي مقبلٌ على المزيد من العبث والمشاكسة الصائتيْن... بعد أن عُرِفتُ «بالمشاكس الصامت.»

تونس

راضية والسيرك: رواية ترتاد مجاهل الشوارع الخلفية في مدينة عربية حيث المسكوتُ عنه